

بحث مستل

كتاب رسائل التعليقات

م.م سفانة داود سلوم

جامعة بغداد

كلية التربية - ابن رشد

الملخص

تناول البحث أربعة مباحث. يتضمن المبحث الأول تفضيل الشعر على النثر والفرق بينهما. أما المبحث الثاني فيبحث في كتاب "لزوم ما لا يلزم" ويتضمن ناحية التشاؤم في أبي العلاء المعري. أما المبحث الثالث فهو عن التكرار في اللزوميات والوحدة النفسية (المعنوية) أما المبحث الرابع فهو عن الغايات والفصول.

Comments Letters

Abstract

The first represents is about the preference of poetry to prose and the difference between the two.

The second research is about the obligation of something unnecessary. It also includes Abu- alalaa's pesimisticim.

The Third thing is the repetition in obligation and the psychological unity. While the fourth aspect is about sections and purposes.

ديدن الرصافي أنه إذا ما قرأ كتاباً كتب على حاشيته ما يعن له من فكر وملاحظة، ثم يعود فيوسعها حتى يستقيم بحثاً أو كتاباً داخل كتاب.

وقد اتفق له أن قرأ ثلاثة كتب فكانت ثمرة القراءة هذا المؤلف الذي كان مثار جدال ونقاش، وهذه الكتب هي:

١ - التصوف الإسلامي للدكتور زكي مبارك - القاهرة ١٩٣٧ وهو رسالة جامعية نال بها درجة للدكتوراه من الجامعة المصرية.

٢ - النثر الفني: وهو أطروحة جامعية حصل عليها الدكتور زكي مبارك من الجامعة الفرنسية، وقد منحته الجامعة الفرنسية درجة الدكتوراه بتاريخ ٢٥/ نيسان/ ١٩٣٢ بدرجة مشرف متقدم وترجمها الدكتور الى اللغة العربية وطبعها في مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤ بجزأين مجموع صفحاتها (٧٦٨) صفحة.

٣ - التاريخ الإسلامي للمستشرق الايطالي كايثاني (١٨٦٩ - ١٩٢٦)^(١).

فرغ الرصافي من تأليف الكتاب في ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٩٤١. وكان كتابه عبارة عن نقد لآراء الدكتور زكي مبارك والمستشرق الايطالي كايثاني في مباحث أدبية وفلسفية وتاريخية، وتعليق عليها، ام مايعينني في بحثي المباحث الأدبية؛ لاتصالها بموضوع دراستي. وطبع في بغداد عام ١٩٤٤ وطبع طبعة ثانية في بيروت عام ١٩٥٧ مع إضافات أخرى^(٢).

ناقش الرصافي في مباحثه الأدبية كتاب الدكتور زكي مبارك النثر الفني وتناول منه آراء عدة:

الرأي الأول: تفضيل الشعر على النثر: ناقش الرصافي رأي الدكتور مبارك وردّه على ابن رشيق في تفضيل الشعر على النثر، فأبن رشيق يرى "كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة، الأ ترى ان الدر - وهو أخو اللفظ ونسيبه، وإليه يقاس وبه يُشَبَّه - إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ولم يُنتفع في الباب الذي له كسب، ومن اجله انتخب.. فإذا نظم كان أصون من الابتذال، واطهر لحسنه من كثرة الاستعمال، وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد في الإسماع، وتدحرج عن الطباع.. فإذا أخذه سلك الوزن، وعقد القافية؛ تألفت أشناته، وازدوجت فرائده"^(٣). فالدكتور مبارك ردّ هذا الرأي وعدّه كلاماً ضعيفاً لا يتناسب وعقلية ابن رشيق؛ فإذا صح أن يشبه الشعر بالعقد المنظوم فإنّه لا يصح ان يشبه النثر بالدر المنثور لان النثر منظوم أيضاً والكاتب يؤلف بين الكلمات ويزوج بين الألفاظ بالدقة نفسها التي يعاني

(١) ينظر: الرصافي حياته - آثاره - شعره، عبدالحميد الرشودي: ٧٠.

(٢) ينظر: معروف الرصافي حياته وآثاره ومواقفه، محمود العبطة: ٤٦.

(٣) العمدة، ابن رشيق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد: ٢٠/١.

ناظم العقد^(٤)، غير أني أجد ابن رشيق محقاً في ما ذهب إليه إذا علمنا أنه يعني الناظم الذي يميز الشعر من النثر وهو الوزن الذي يخلو النثر منه. فالوزن سلك رفيع يمسك الشعر من أن ينفلت فتضيع صورته التي تتابع في أبياته، بل ان الشعر الحر الذي خلا من الوزن التزم التفعلية التي قامت مقامه في المحافظة على صورته من الانفلات والضياع، وأظن أن تشبيه النثر بالدر المنثور ليس عيباً، فلا أحد ينثر الدر على الأرض، ولا بد من وضعه على قطعة قماش تحفظه من الضياع، وهذا القماش هو يمثل الفكرة التي يختارها المبدع ليكتب فيها.

وقف الرصافي من رأي الدكتور مبارك موقفاً انتقادياً حازماً عندما عدها غلطة اقترفها الدكتور فقال "وهذه اول غلطة صادفتها للدكتور في كتابه المذكور ويالها من غلطة اكبر به نفسه واصغر ابن رشيق ظلماً بغير حق"^(٥).

وبيين لنا الرصافي معنى النظم:

قد يطلق النظم ويراد به تأليف الكلام في أسلوب من أساليبه، وهو بهذا المعنى موجود في الشعر والنثر، ويعبر علماء التفسير عن أسلوب القرآن الكريم بالنظم في كثير من كلامهم^(٦). وما يعينه علماء التفسير من النظم في القرآن هو "نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء الى الشيء كيف جاء واتفق"^(٧).

أما النوع الآخر من النظم، كما يرى الرصافي يطلق ويراد به الوزن وهذا لا يوجد الا في الشعر، فابن رشيق لما فضل المنظوم على المنثور عنى بالمنظوم (الموزون) بدليل قوله "فاذا أخذ سلك الوزن وعقد القافية" (ولهذا يعترض الرصافي على الدكتور بقوله) كيف يحتج الدكتور على ابن رشيق بأن النثر منظوم أيضاً، وهل تسمح ثقافة الدكتور بادعاء ان النثر موزون أيضاً كالشعر^(٨).

اهتم النقاد القدماء بتحديد مفهوم الشعر وتمييزه من النثر، فابن طباطبا (٣٢٢هـ) عرف الشعر بأنه "كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجّته الإسماع، وفسد على الذوق. ونظمه معلوم محدود، فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج الى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن من تصحيحه

(٤) ينظر: رسائل التعليقات، الرصافي: ٩٦.

(٥) م. ن: ٩٦.

(٦) ينظر: م. ن: ٩٧.

(٧) دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، علقه وطبع حواشيه الشيخ محمد رشيد رضا: ٤٠. ينظر حسن التوسل الى صناعة الترس، شهاب الدين محمود الحلبي، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف: ١٧٨.

(٨) ينظر: رسائل التعليقات، الرصافي: ٩٧.

وتقويمه بمعرفة العروض والحدق بها، حتى تعتبر معرفته الاستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه^(٩)، فهو يحدد الشعر من ناحية شكله، وظاهره فيرى ان الشعر يختص بخاصية ملازمة له تفصل بينه وبين النثر وهي الوزن، فهو يحدد الشعر على أساس الانتظام الخارجي للكلمات فأبن طباطبا يرى عروض الشعر أو وزنه ضرورة لازمة تخرج من كلمات الشعر، فالشاعر الموهوب يتدفق شعره موزوناً دون تعلم الأوزان^(١٠). أما قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) فقد عرف الشعر بأنه قول "موزون مقفى يدل على معنى"^(١١)، فجعل الوزن والقافية أساس بنيه الشعر، فالوزن يميز الشعر عن النثر.

جعل ابن سينا (٣٧٥-٤٢٨هـ) في أحد تعريفاته للشعر الإيقاع سمة خاصة تميزه من النثر، إذ يقول:

"والشعر لا يتم شعراً الا بمقدمات مخيلة ووزن ذي ايقاع مناسب، ليكون اسرع تأثيراً في النفوس ، تميل النفوس الى المترنات والمنظمات والتركيب"^(١٢).

ابن سينا يجعل الوزن هو الذي يميز الشعر عن النثر، وان الكلام الموزون اسرع تأثيراً في النفوس. أما ابن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ) فيرى ان النظام الخاص بالوزن في الشعر ارتبط "بغاية الشعر وطبيعته التخيلية عند ابن سينا مما يدفع به الى القول بتجنبه في الخطابة لعدم ملاءمته للإقناع، فإننا نجد ابن رشد يبرر عدم صلاحية الوزن الشعري للخطابة على أساس اختلاف غايتي كل من الشعر، والخطابة أيضاً"^(١٣).

ويرى ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) ان لكل فن مجالاً، ولا مجال أن نقارن أحدهما بالآخر، قال: "اعلم ان لسان العرب وكلامهم على فنين: فن الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية وفن النثر وهو الكلام غير الموزون. وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام. فإما الشعر فمنه المدح والهجاء والرثاء. وإما النثر فمنه الكلام الذي توتى به قطعاً، ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة ويسمى سجعاً. ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها"^(١٤).

فابن خلدون يضع حداً فاصلاً بين الشعر والنثر بالوزن.

(٩) عيار الشعر، ابن طباطبا، تحقيق عباس عبد الساتر: ٩.

(١٠) ينظر: تاريخ النقد العربي الى القرن الرابع الهجري، محمد زغول سلام: ١٣٠/١.

(١١) نقد الشعر، قدامة بن جعفر: ١٧، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي: ٦٤.

(١٢) كتاب المجموع او الحكمة العروضية في كتاب معاني الشعر، ابن سينا: ٢٠.

(١٣) نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، د.ألفت كمال الروبي: ٢٣٥؛ ينظر تلخيص الخطابة، ابن رشد حققه وقدم له

عبد الرحمن بدوي: ٢٨٣..

(١٤) علم الأدب مقالات لمشاهير العرب، ابن خلدون، جمع الاب لويس شيخو اليسوعي: ١٩٤/٢.

لقد نظر الرصافي الى كلام مبارك بروى الشاعر وليس الناقد، فابن رشيق عندما جعل النظم فضيلة في الشعر يتفوق بها على النثر، قصد بذلك ان القول لا يثبت بالذهن ولا يعلق بالقلب الا بالوزن، فهو القيد الذي يحفظه من التشتت، ولولاه لكان كغيره من ضروب القول الأخرى، فالشعر يثبت في خاطر بوزنه ولفظه، ولا يبقى من النثر الا لفظه، إنما يضيع اللفظ ويبقى مدلوله ومعناه فحسب فالوزن مظهر من مظاهر التعبير الشعري لأنه يهيء الجو النفسي للفظ، والمعنى وهذا ما لا نجده في الكلام المنثور^(١٥).

وعارض مبارك ابن رشيق وعدّ النثر منظوماً أيضاً، ويكون سبب هذه المعارضة ان مبارك في إثناء دراسته في فرنسا اطلع على الأدب الفرنسي والشعر الفرنسي^(*). وهو ما عرف في ثلاثينيات القرن الماضي بالشعر المرسل، وحركة الشعر المرسل لم يكتب لها النجاح الا أنها كانت حسب رأي الدكتور احمد مطلوب تمهيداً لظهور الشعر الحر^(١٦).

وقد يكون مبارك عنى من كلامه وجود النظم في النثر هو ما أصطلح على تسمية بالنثر الشعري ذلك "النثر الذي يتميز ببراعة السبك ويستخدم المحسنات اللفظية والمجازات والأوزان الإيقاعية الشائعة في الشعر عامة وفي النثر العربي هذه الشاعرية في مقامات بديع الزمان الهمذاني (٢٩٣هـ)^(١٧).

النثر الشعري هو الكتابة النثرية التي تستخدم التنعيم الشعري والعاطفة المشبوبة وهو يختلف عن الشعر المنثور في أسلوبه. واستعمل النثر الشعري جبران في الرواية والقصص القصيرة وفي كثير من كتابات أخرى^(١٨).

وقد يستطيع الناثر ان يكتب قطعة نثرية تصل في موسيقاها الى مستوى موسيقي الشعر قال الثعالبي بعد ان ذكر بيتي ابي نواس:

يا قمرأً أبرزة^(*) في مأتم

تندبُ شجواً بين أنراب

يئكي فيذرى الدرّ من نرجس

ويلطّم الوردَ بعناب^(١٩)

^(١٥) ينظر : تاريخ النقد العربي الى القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام: ٣٧/١.
^(*) لقد قرأ الدكتور كثيراً من الآثار الغربية المترجمة وغير المترجمة لأعلام الأدب العالمي، لاسيما الأدباء الفرنسيين

مثال (روسو) و(هيجو). زكي مبارك سيرة وعطاء، د. عادل كتاب: ٨٣.

^(١٦) ينظر : النقد الأدبي الحديث في العراق، د. احمد مطلوب: ٢٣٠.

^(١٧) الشعر المنثور والتحديات الشعرية، حورية الخمليشي: ١٤٧.

^(١٨) ينظر : م. ن: ١٤٩.

^(*) وردت هذه المفردة عند الثعالبي (أبصرث).

^(١٩) شرح ديوان أبي نواس: ٢٣٠.

رتعت عيني في روض الإنس، وضرة الشمس، ورأت قمر الأرض، وتمثال الحسن المحض، في مآتم تحولت عرسا بها، ومحاسن الدنيا في ثيابها، وهي تندب بين أترابها، وتبكي فتنثر الدر من النرجس، وتلطم الورد بالعناب المونس، فيا له من منظر أنيق بالتعجب منه حقيق^(٢٠)، المتأمل في هذه الأبيات الشعرية والمقطوعة النثرية، يجد ان الأبيات بفضل الوزن تقع من النفس موقعا حسنا، وتعلق في القلب والذهن، مثلما تنال المقطوعة النثرية مكانتها التي تستحق بفضل النثر الذي اصطبغ بالشاعرية وبالصور المتتابعة التي تعلق بالذهن ولكن مع ذلك يبقى "الوزن أعظم أركان حد الشعر، وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة"^(٢١).

نخلص مما سبق الى ان الرصافي وزكي مبارك ينظران الى الشعر كل من وجهة نظره هو، فالرصافي من أنصار الشعر التقليدي القائم على الوزن، عكس الدكتور مبارك الذي اطلع على الحركات الأدبية الحديثة عن الشعر المنثور حركة الريحاني (١٨٧٦ - ١٩٤٠) وهو أول من كتب الشعر نثرا في العربية (١٩٠٥)، فضلا عن تأثر الدكتور مبارك بالأدب الأوربية، كل هذه الأبيات جعلت له نظرة خاصة تختلف عن غيره في الشعر والنثر.

وان كانت وجهة نظر الرصافي تقليدية، الا أنها نظرة تظهر ثقافة الأديب العراقي في ذلك الوقت، فضلا عن الاعتزاز بالتراث الشعري القديم القائم على ضرورة الحفاظ على الوزن، والقافية.

يرى زكي مبارك في كتاب النثر الفني أن من الكتاب من اتخذ النثر أداة للغزل، والتشبيب كالشعر فهو يقول: "ان النثر يصلح أيضا للمعاني الغرامية"^(٢٢).

ويعلق الرصافي على هذا القول بقوله "سبحان الله من ذا أنكر صلاحية النثر لجميع المعاني من أولها الى آخرها حتى يقيم الدكتور دليلاً عليها. ومن البديهي أن مجال النثر أوسع من مجال الشعر وان الفرق بينهما كالفرق بين المطلق والمقيد"^(٢٣).

ولكن الذي تحقق في الأدب أن النثر صالح لجميع الموضوعات، فلو رجعنا الى الأدب الأندلسي، وجدنا شواهد كثيرة في هذا الباب، من ذلك مؤلفات ابن حزم الأندلسي الذي يقول فيه الدكتور باقر سماكة "برع في الشعر براعته في النثر"^(٢٤)، في كتابه طوق الحمامة في الألفه والآلاف نماذج من النثر الأندلسي ففي باب علامات الحب من كتابه قال: "وللحب علامات يقفوها الفطن، ويهتدي إليها الذكي،

(٢٠) نثر النظم وحل العقد، الثعالبي: ٢٥١.

(٢١) العمدة، ابن رشيق: ١٣٤/١. ينظر ابن رشيق القيرواني، محمد سلامة يوسف رحمة: ١٠٤.

(٢٢) النثر الفني، زكي مبارك: ٢٦/١.

(٢٣) رسائل التعليقات، الرصافي: ٩٨.

(٢٤) التجديد في الأدب الأندلسي، باقر سماكة: ١٠٧.

فأولها إيمان النظر، والعين باب النفس الشارع، وهي المنقبة عن سرائرها والمعبرة لضمائرها والمعربة عن بواطنها. فترى الناظر لا يطوف ينتقل بتنقل المحبوب، وينزوي بانزوائه ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس^(٢٥)، فلو أنعمنا النظر في هذه القطعة النثرية لوجدنا الكاتب قد استعان بأساليب بلاغية من ذلك الطباق في قوله الضمائر والبواطن، واستعان بالتشبيه في قوله ويميل حيث مال كالحرباء، ثم الكناية في قوله كالحرباء مع الشمس كناية عن تلونها وتغير حالها. وهذه هي حال الشعر في ميله الى الخيال على حسب الأفكار المباشرة الصريحة والتعبير بوساطة المجاز لا الحقيقة.

ولشاعر الأندلس ابن زيدون (٤٦٣ هـ) الذي عُرف بشعره العاطفي الرقيق، بنثره الفائق^(٢٦).

وفي مقطوعة ليلة نعيم وصف ابن زيدون، ليلة طواها مع ولادة في نعيم ثم في عتاب أشبهه بالجنان: "كنت في أيام الشباب وغمرة التصاب هائماً بغادة تدعى ولادة أرى الحياة متعلقة بقربها، ولا يزيدني امتناعها الا اغتباطاً بها فلما قدر اللقاء وساعد القضاء كتبت إليّ:

ترقب اذا جن الظلام زيارتي

فإني رأيت الليل، اكنم للسرّ

فلما طوى النهار كافوره ونشر الليل عبيره، اقبلت بقدر كالقضيب وردف كالكثيب وقد أطبقت نرجس المقال على ورد الخجل.. باح كلّ منا بحبه وشكا اليم ما بقلبه، وبتنا بليلة نجني أقحوان الثغور ونقطف رمان الصدور، ولما نشر الصبح لواءه وطوى الليل ظلماؤه، ودعتها وأنشدتها:

ودّع الصبر محباً ودعك

ذائع من سرّه ما استودعك

يا أبا البدر سناءً وسناً

حفظ الله زمانا أطلعك

إن يطلّ بعدك ليّلي فلکم

بتّ أشكو قصر الليل معك^(٢٧)

عبر ابن زيدون عن مشاعره شعراً ونثراً، ولم يكن النثر أقل شاعرية من نظيره، فما ضمنه الأول من قافية امتلكه الثاني من السجع من ذلك قوله: (نجني أقحوان الثغور، ونقطف رمان الصدور) ثم حفل النثر بصور شتى رائعات، من ذلك قوله كما نشر الصبح لواءه، دلالة على انتصار النور على الظلام

^(٢٥) طوق الحمامة في الألفه والالاف، ابن حزم الأندلسي: ٧٠.

^(٢٦) ينظر: الأدب العربي في الأندلس، عبدالعزيز عتيق: ٤٥٨.

^(٢٧) ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتعليق الاستاذ علي عبد العظيم: ٧٤٢.

فمن يرفع لواءه هو المنتصر على عدوه، ثم عبر عن انحسار الظلام بقوله وطوى الليل ظلماء، وكأن الظلمات أردية تخلص منها الليل بطيها.. ولا يفوتنا ذكر أسلوب الحذف في قوله (وشكا اليم ما يقلبه) فقد حذف كلمة شوقاً أليماً فشدة ألمه تمنعه في ان يذكر ما يؤلمه، واستعمل كلمة أليم بدلا عن مؤلم ليزيد من شعورنا بألمه، ثم نجد الكناية عن بياض الأسنان بقوله أقحوان الثغور وكنى عن صدرها الكاعب بقوله رمان الصدور.

وقد يكون الدكتور زكي مبارك عنى من قوله أن النثر يصلح للمعاني الغرامية هو نوع من التأكيد؛ لان النثر خالٍ من العاطفة والخيال وبمجرد ذكر النثر يتبادر الى الذهن الخطابة، فالعرب عبرت عن الحب والمشاعر أول ما عبرت بالشعر وليس النثر.

وهناك احتمال آخر ان الدكتور زكي مبارك لم يعنِ النثر الذي عرفته العرب كالخطابة وغيرها وإنما عنى التعبير بالنثر وهناك أربع طرائق للتعبير:

أ - التعبير نثريا بالنثر.

ب - التعبير نثريا بالوزن.

ج - التعبير شعريا بالنثر.

د - التعبير شعريا بالوزن.

مع اهتمام بالطريقتين الأخيرتين اللتين تتحقق الشعرية فيها، وبهذا لا يمكن ان يكون الوزن المحدد الأول والأخير للشعرية^(٢٨). فالدكتور أراد ان يوصل فكرة مفادها ان الشعرية تتحقق باللغة وليس بالوزن، وهذه محاولة ضمنية من الدكتور لإثبات شرعية الشعر المنثور الذي تطور فيما بعد الى قصيدة النثر. التي هي دليل واضح على ان النثر قد يبلغ فيه الفنان التأثير الشعري، ويسمو الى مرتبة الشعر، ولكن يبقى الوزن هو الحد الفاصل بين الشعر والنثر.

ورأي الرصافي الثالث كان في مناقشة الدكتور مبارك في مسألة الفرق بين الشعر والنثر لما قال الدكتور "إن الموضوعات هي التي تحدد نوع الصياغة، فليس ينبغي ان يفترض من ان الشعر صالح لكل موضوع، ولا أن النثر صالح لكل موضوع فهناك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر"^(٢٩).

(٢٨) ينظر: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، د. يوسف وغليسي: ٣١١.

(٢٩) النثر الفني في القرن الرابع، د. زكي مبارك: ٢٧/١.

يلق الرصافي على هذا القول بقوله: "قول ينبو عنه الفهم؛ لأن النثر يصلح لجميع المعاني على اختلاف أنواعها وتباين مواطنها. وكذلك الشعر فان الشاعر يستطيع أن يعمد الى حقيقة مادية جافة فيلبسها ثوباً قشيباً من الخيال ويظهرها للناس بصورة شعرية تتصل بالمشاعر والعواطف والقلوب"^(٣٠).

ورأي الرصافي قائم على رؤى الشاعر، الذي يجعل الوزن مقياساً حاسماً للتمييز بين الشعر والنثر. يختلف الشعر عن النثر في الشكل (من حيث الأسلوب) وفي المضمون (من حيث الأفكار والملكات النفسية الفعالة)، فمن حيث الأفكار يكمن الفارق بين الشعر والنثر، فالأول عمل الفن إطلاقاً والثاني أداة التعبير الدقيق، أضاف الى ان الشعر غايته الإمتاع والنثر غايته الفائدة والإخبار، فهذه الاختلافات العميقة في المضمون تقود الى تباين ظاهر في الأسلوب فالأجناس النثرية يلائمها تعبير مجرد بسيط واضح، بينما يكون الأسلوب الشعري بصورة عامة أشد تعبيراً وتلويناً وانسجاماً^(٣١)، لهذا كان الشعر الصورة التعبيرية الأدبية الأولى التي ظهرت في حياة الإنسان منذ العصور الأولى، وسبب قدم الشعر يرجع الى انه كان في تلك الحقبة ضرورة حياتية "فالأمم التي لها أدب، قبل ان تعبر عن عواطفها وميولها بالنثر عبرت عن لذاتها وآلامها بالشعر، وكان الشعر هو لسانها الأدبي فلما تطورت هذه الأمم وارتقى عقلها وتغيرت نظمها السياسية والاجتماعية واتصلت بغيرها من الشعوب، فنشأ عن ذلك ان وجدت فيها أفكار وآراء لم توجد عندها من قبل واحتاجت ان تنظم هذه الأفكار والأداء وان تصورها وتعلنها فعجز الشعر عن ان يعبر عنها واضطرت ان تعبر عن هذه الحاجات بأوسع من الشعر فعبرت عنه بالنثر"^(٣٢).

لهذا فإن لكل من الشعر والنثر جمالية خاصة لا يمكن دمجها حتى ان امتزج الشعر مع أبواب العلوم والفلسفة الا انه شعر جاف خالٍ من العاطفة والخيال، ويدخل ضمن الشعر الفلسفي، ويكون الى الفهم اقرب من تحريك المشاعر والعواطف، فالشعر الحق هو ما عرفه الرصافي في قصيدة "خواطر شاعر":

وما الشعر الا كل ما رنح الفتى

كما رنحت اعطاف شاربها الخمر

فمن نفثات الشعر سجع حمامة

على أيكه يُشجي المشوق لها هدر

ومن ضحكات الشعر دمعة عاشقٍ

بها قد شكا للوصل ما فعل الهجر

^(٣٠) رسائل التعليقات، الرصافي: ١٠١.

^(٣١) ينظر: نظرية الأنواع الأدبية، ك - فنسنت: ٣١. ينظر اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي، محمد رضا مبارك: ٢٣.

^(٣٢) من حديث الشعر والنثر، د. طه حسين: ٢٣.

ومن لمعات الشعر نظرة عادة

بنجلاء تسبي القلب في طَرْفها فتر

ومن جمرات الشعر رتة تاكل

مفجعة أودي بواحدھا الدهر

وان لم يكن شعري من الشعر لم يكن

لعمُر النهى للشعر عند النهى قدر^(٣٣)

يرى الرصافي أن الشعر لا يستحق أن يكون شعراً إلا إذا طرب له من يسمعه، وفي قوله الفتى أي من تشغله الفروسية، ومصارعة الأبطال في كل أمر، فإذا سمع هذا الشعر ترنح كما يترنح شارب الخمرة. فهو كشجو الحمام الذي يهيج في النفس الشوق والحب، بل ان الشعر الجيد يولد في نفس سامعه شوقاً، مثل الشوق الذي في نفس المحب لما أسعفه الوصل والتقى بحبيبه. ومما يؤدي الى لفت النظر في الشعر قول الشاعر يصف فيه نظرة فتاة جميلة تطعن بنظرها مثلما يطعن الفارس بسيفه، وشعر الرثاء فيه لوعة وحرقة، فإذا خلا الشعر من كل ما ذكره الرصافي، لم يكن له عند أحد قدر ولا لأحد به حاجة إليه.

فالرصافي عندما وصف الشعر في هذه الأبيات أكد رأيه "ان الشاعر يستطيع ان يعتمد الى حقيقة جافة فيلبسها ثوباً قشيباً من الخيال ويظهرها بصورة شعرية تتصل بالمشاعر والقلوب"^(٣٤). مستنداً الى الخيال والشعور والقدرة على تصوير المشاعر بواسطة الألفاظ، وهذا ما عرضه الدكتور مبارك عندما قال "ان الموضوعات هي التي تحدد نوع الصياغة"^(٣٥).

إما الرأي الرابع فقد تناول الرصافي من كتاب النثر الفني للدكتور مبارك فصل عن النثر الجاهلي، أنكر الدكتور فيه وجود النثر الجاهلي، قال: "لقد اتفق مؤرخو اللغة العربية وآدابها كما اتفق مؤرخو الإسلام على ان العرب لم يكن لهم وجود أدبي ولا سياسي قبل عصر النبوة، وان الإسلام هو الذي أحياهم بعد موت ونبههم بعد خمول"^(٣٦).

فالرصافي ينكر هذا الرأي بشدة ويحتج على الدكتور فيما عرفوا به من شعر وخطب وأساجيع؟ أو ليست هذه من الأدب، وهل انحصر الأدب في الشعر وحده لا شريك له، فإذا افترضنا ان هذا النثر من وضع الرواة الذي وضعه بعد الإسلام، فالسؤال هو من أين تعلم الرواة هذا المنهج الأدبي الجاهلي حتى

(٣٣) ديوان الرصافي: ٩١/١.

(٣٤) رسائل التعليقات، الرصافي: ١٠١. ينظر النثر الفني، زكي مبارك: ٣٧/ ١.

(٣٥) م. ن: ١٠٠.

(٣٦) م. ن: ١٠٦.

وضعوا على لسان أهل الجاهلية؟ فلا بد ان تكون لهذه الروايات أصل ونهج نهجوا في وضعها منهج الجاهلية، وهذا دليل على ان للجاهلين مثلها على أقل تقدير^(٣٧). يكاد يجمع أكثر النقاد والكتّاب على وجود النثر في العصر الجاهلي، متمثلاً بالخطب والأمثال والحكم وما أطلق عليه سجع الكهان، وكان نثرهم مرسلاً لا تكلف فيه ولا تصنع وطريقتهم هي إعطاء اللفظ والمعنى حقه مع البعد عن الإطناب والمبالغة والقصد الى الإيجاز والسهولة.. وكان هذا النثر ينقل شفاهاً حتى عصر التدوين مما ادخل عنصر الشك لدى الدارسين^(٣٨).

وهناك من الباحثين من يرى ان النثر أقدم نشأة ودوراناً على الألسن من الشعر، ولكنة النثر لم يهتم العرب بروايته حتى روى ابن رشيقي قول من قال إن "ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره"^(٣٩).

وأجد ان الرصافي محق في رأيه بسبب وجود الأمثال في الجاهلية، والأمثال هي "جمل قصيرة وجيزة تدل على صحة الرأي وصدق الاختبار وربما نشأ المثل من لغة الشاعر في بيت من الشعر أو من برقة فكر لرجل في إثناء حديث فوافق ما ألفه الناس في حياتهم فأصبح قاعدة في السلوك الإنساني (خيراً أو شراً) أو واقعاً لا مفر منه"^(٤٠).

ثم وجود الخطابة التي حظيت بمكانة مهمة في العصر الجاهلي فهي تتصل اتصالاً وثيقاً بكل ناحية من نواحي الحياة العربية فقد كان زعماء عشائريهم يدعون بها للحرب أو الصلح، ويرأسون وفودهم في رحلتهم الى ملوك الدول المجاورة، ويلتقون في أسواقهم للمفاخرة في مآثرهم، وينوبون في خطب المصاهرة ويستقون لهم السماء، ويقومون بوعظهم وإرشادهم^(٤١).

ومما يجدر الإشارة إليه ان مرتبة الخطيب كانت أعلى من مرتبة الشاعر؛ لأن الخطيب لا يكون الا سيداً غالباً اما الشاعر فقد يكون ملكاً او صعلوكاً. وزاد من علو مرتبة الخطيب على الشاعر هو نزول القرآن مسجوعاً. على مذهب الخطباء ولم ينزل منظوماً على عروض الشعراء^(٤٢).

فالنثر يمثل حياة الإنسان العربي في العصر الجاهلي التي أساسها مكارم الأخلاق والعفة والكرم والتواضع، والحفاظ على الروابط الأسرية، الى آخر ما هنالك من الأخلاق التي ترق بها الأمم.

^(٣٧) ينظر: م. ن: ١١٠.

^(٣٨) ينظر: النثر لدى عماد الدين الأصفهاني الكاتب (ت ٥٦٧) دراسة موضوعية وفنية، عبدالرحمن حسين، رسالة ماجستير: ٩.

^(٣٩) ينظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ: ٨٩/٢. ينظر الموجز في الأدب العربي وتاريخه، حنا الفاخوري: ٦٤/١.

^(٤٠) تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ: ٨٩/١.

^(٤١) ينظر: قس بن ساعدة الأيادي حياته خطبه شعره، احمد الربيعي: ١٤.

^(٤٢) م. ن: ١٥. ينظر الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص: ٢١.

إلا ان نقل هذا النثر شفاهاً أدى الى ضياع كثير منه، على عكس الشعر الذي حفظته الصدور وتناقلته الأجيال.

وذهب الدكتور مبارك أبعد من ذلك فهو لن يكتفي بإنكار النثر الجاهلي، بل سأل في كتابه سؤالاً عجيباً كما يقول الرصافي هو: هل كان النثر الفني موجوداً في الجاهلية؟

قال الدكتور مبارك: "والمسيو مرسية يؤمن بوجود الخطب في العصر الجاهلي، وينكر إنكاراً مطلقاً ان يكون هناك نثر فني كالذي يلجأ إليه الرجل لإذاعة فكرة او دفع شبه او إيضاح مشكلة"^(٤٣).

وقال الدكتور: "كانت حجة المسيو مرسية التي واجهني بها في صيف ١٩٢٧ أنه لو كانت هناك مؤلفات نثرية لدونت وحفظت ونقلت ألينا كلها، او بعضها كما في آثار الهند والفرس والروم وقد أجبته يومذاك بأن فقدان تلك الآثار لا يكفي لإنكار انه كان لها نصيب من الوجود"^(٤٤).

عرّف العرب النثر الفني بأنه "النثر الذي يريد به صاحبه التأثير في نفوس السامعين، وهو أنواع منه ما يكون قصصاً او يكون رسائل أدبية، ويمتاز بالصياغة وجمال الأداء"^(٤٥)، وجاء في سيرُ إعلام النبلاء: من "أن سُويّد بن الصامت قدم مكة حاجاً ومعتماً.. فتصدى له رسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حين سمع به فدعاه الى الله والى الإسلام، فقال سُويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي، فقال رسول (ص): اعرضها عليّ، فعرضها عليه، فقال له: إن هذا الكلام حسن والذي معي أفضل من هذا: قرآن انزله الله عليّ هو هدى ونور، فتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه الى الإسلام، فلم يبغض منه، وقال: ان هذا القول حسن..."^(٤٦). فقد كان لديهم صحيفة بها بعض أمثال وحكم، وكانوا ينسبونه الى لقمان.

والنثر الفني يخضع لنظرية الفن، أو هو الذي يغلب عليه الأسلوب الفني، ويحتوي على عناصر منها: الأفكار وحسن الصياغة، وجودة السبك ومراعاة قواعد اللغة العربية إضافة الى وجود العاطفة والخيال، ومن أقسامه الخطابة وعمادها اللسان"^(٤٧).

والجدير بالذكر ان اللغة التي كانوا يستعملونها في الكتب والرسائل هي اللغة نفسها التي يستعملها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والخلفاء والصحابة"^(٤٨).

^(٤٣) رسائل التعليقات ، الرصافي: ١١٣ ، ينظر : النثر الفني في القرن الرابع، د.زكي مبارك: ٣٨/١.

^(٤٤) م.ن: ١١٤. ينظر: م.ن: ٣٩-١.

^(٤٥) ينظر : العصر الجاهلي، شوقي ضيف: ٣٩٨. والفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف: ١٥.

^(٤٦) سيرُ إعلام النبلاء للأمام شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ): ١٨٧/١.

^(٤٧) ينظر : النثر في العصر الجاهلي، هاشم صالح مناع: ٢٢.

^(٤٨) ينظر : المجلد في تاريخ الأدب العربي، طه حسين ومجموعة من الباحثين: ٩٢.

ويعلق الرصافي على قول المسيو مرسيه بقوله "ولكن هذا الفرنسي ومن لفّ لفه إذا ذكرنا لهم شيئاً من كلامهم المنثور قالوا هذا من وضع الرواة، ولو إنهم تكلموا في إثبات وضعه عن دليل لا عن ظن لهان الخطب ولكنهم ينفون وينكرون ويرومون الكلام على عواهنه رميةً ويصرون على ما يدعون عناداً وبغياً. فسبحان من ابتلاهم بإتباع الهوى حتى في المسائل العلمية"^(٤٩).

ولعل ما حمل العالم الفرنسي الى القول بعدم وجود النثر الفني في الجاهلية، هو تمسك الدكتور مبارك برأيه في عد القرآن الكريم صورة من نثر الجاهلية.

وهذا ما أشار إليه الرصافي بقوله "يريد الدكتور ان يثبت للجاهلية نثراً فنياً ليلقم به منكزية الحجر، ويفوز في حلبة الأدب بالخطر... هداه الذكاء الوقاد الى القرآن، لأنه كلام منثور في كتاب مسطور. فتشبت به فكان الغريق الذي تشبت بعائم الحشيش"^(٥٠).

وينكر الرصافي ان يكون القرآن يمثل النثر الجاهلي فهو في رأيه نثر بلا شك ولا ريب، لا كما يقول الدكتور طه حسين "لا هو نثر ولا هو شعر وإنما هو قرآن" بل هو نثر مفصل لا هو مسجوع ولا مرسل. وإنه جاء بأسلوب خاص مبتكر لم تعرفه العرب"^(٥١).

فالقرآن لا يمثل النثر الجاهلي؛ لأن العرب لم يستطيعوا "ان يحاكوه أيام النبي ولا بعده ذلك هو نظم القرآن أي أسلوبه في أداء المعاني.. لم يؤد إليهم هذه المعاني شعراً كما قدمنا ولم يؤدها إليهم نثراً وإنما أداها على مذهب مقصور عليه في أسلوب خاص به لم يسبق اليه ولم يلحق فيه، ليس شعراً لأنه لا يتقيد بأوزان الشعر وليس نثراً لأنه لا يطلق إطلاق النثر ولا يقيد بهذه القيود التي عرفها الكتاب في الإسلام وإنما هو آيات متصلة لها مزاجها الخاص في الاتصال والانفصال وفي الطول والقصر.."^(٥٢).

يضاف الى هذا خاصيته البيانية المتمثلة في الملاءمة بين أسلوبه وطبيعة موضوعاته من حيث الأداء الفني.

ولا ينسى الدكتور دور القرآن الكريم الاجتماعي، فهو يشكل قوام الفكر الإنساني بأسره، وإحياء كثير من العلوم العربية ومنها علوم اللغة والتاريخ ومجمل الحركة التعليمية التي قامت بفضل القرآن"^(٥٣).

(٤٩) رسائل التعليقات، الرصافي: ١١٥.

(٥٠) م. ن: ١٢١.

(٥١) م. ن: ١٢٢.

(٥٢) الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين، يوسف نور عوض: ٢٤٤.

(٥٣) ينظر: م. ن: ٢٤٥.

فالقرآن يضم أكثر من ألف آية كونية فيها حقائق علمية، اثبت صحتها في القرن العشرين في الذرة والنسبية وغزو الفضاء والطبيعة وغيرها من الحقائق التي لم يكن الإنسان ولا الرسول الكريم (ص) يعلم شيئاً منها^(٥٤).

فالرصافي مصيب في رأيه عندما رفض عدّ القرآن من النثر الجاهلي، أما ما حمل الدكتور مبارك على هذا الرأي هو أنه نتاج الثقافة الفرنسية، "نفوذ المتشركين وآراؤهم وتبعية المنقذين الذين يتلقون دروسهم في السربون في ترويج آراء الغرب والإيمان بها"^(٥٥). الا ان زكي مبارك حاول فيما بعد التحرر من هذه الآراء، فبعد معركة "الشعر الجاهلي" تحول مبارك تحولاً عظيماً، فخالف آراء المستشرقين وكشف عن تعمدهم خلق الشبهات ودعا الى إحياء الأمجاد العربية، وأن يكون التعليم بالجامعة باللغة العربية، حتى ان المستشرقين وصفوه بأنه "رجل غير مصقول وعاق لأنه خان أمانته للتغريب والحضارة الغربية ورسالة الفكر الفرنسي... وما رسالة الفكر الفرنسي في ذلك الوقت - كما يذهب بعض المؤرخين للأدب - الا في تسميم الفكر العربي وهدمه"^(٥٦).

فتصدى الرصافي بحسه الوطني وحبه للعربية لهذه الآراء التي تمثل ومضات فكرية سجلها رغبة في المناقشة والنقد.

^(٥٤) ينظر : الإعجاز العلمي في أسرار القرآن الكريم والسنة النبوية، محمد حسن يوسف: ١١.

^(٥٥) معارك طه حسين الأدبية والفكرية، سامح كريم: ٣٠٦.

^(٥٦) م.ن: ٣٠٧.

المصادر

- ابن رشيق القيرواني، محمد سلامة يوسف رحمة، د.م، د.ط، د.ت.
- الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربي، بيروت، د.ط، ١٩٧٦.
- اشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، يوسف وغليسي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م.
- الاعجاز العلمي في اسرار القرآن الكريم والسنة النبوية، محمد حسن يوسف، دار الكتاب العربي، دمشق - القاهرة، ط١، ٢٠٠٥.
- تاريخ الادب العربي ، عمر فروخ، ج١-ج٢، دار العلم للملايين ، ط٦، ١٩٩٢.
- تاريخ النقد العربي الى القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، ج١، دار المعارف، مصر، د.ط، ١٩٦٤.
- التجديد في الادب الاندلسي، باقر سماكة، مطبعة الايمان، بغداد، ط١، ١٩٧١.
- تلخيص الخطابة ، ابن رشد، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي ، القاهرة، د.م، د.ط، ١٩٦٠.
- الخطابة العربية في عصرها الذهبي، احسان النص، دار المعارف، د.ط، ١٩٦٣.
- دلائل الاعجاز في علم المعاني، الامام عبد القاهر الجرجاني، وقف على تصحيح طبعه وعلق حاشيه الشيخ محمد رشيد رضا، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
- ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتعليق الاستاذ علي عبد العظيم، تقديم ومراجعة احسان النص، الكويت، ط٣، ٢٠٠٤.
- ديوان الرصافي، شرح وتعليق مصطفى علي ، ج١-ج٥، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد - العراق، ط٢، ١٩٨٦.
- الرؤية الحضارية والنقدية في ادب طه حسين، د.يوسف نور عوض، دار القلم، بيروت، د.ط، د.ت.
- رسائل التعليقات ،معروف الرصافي، دار ربحانة للطباعة والنشر ، بيروت، ط٢، ١٣٧٦ هـ-١٩٥٧ م.
- الرصافي حياته واثاره ومواقفه، محمود العبطة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩١.
- زكي مبارك سيرة وعطاء، د. عادل كتاب، دار الفراهيدي، د.ط، ٢٠١٠ م.
- سير اعلام النبلاء بهامشه احكام الرجال من ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، كلاهما للامام شمس الدين الذهبي(ت٧٤٨هـ) قدم له: سيد حسين العقابي حققه وخرج احاديثه خيري سعيد، ج١-ج٢، سيرة النبي ، المكتبة التوفيقية، سيدنا الحسين، مصر ، د.ط، د.ت.
- شرح ديوان ابي نواس الحسن بن هاني، شرحه واعتنى به محمد فاضلي ، ابراهيم شمس الدين، دار صبح، بيروت، ط١، ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٨ م.
- الشعر المنثور والتحديث الشعري، حورية الخمليشي، قدم لها الدكتور محمد مفتاح، مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠.

- طوق الحمامة في الالفه والالاف، ابن حزم الاندلسي قدم له وحققه المحامي فاروق سعيد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، د.ت.
 - العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٨، د.ت.
 - العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده، ابن رشيق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٥، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
 - عيار الشعر، محمد بن احمد بن طباطبا العلوي، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر، مراجعة نعيم زوزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ.
 - الفن ومذاهبه في النثر العربي، د.شوقي ضيف، دار المعارف، بمصر، ط٤، ١٩٦٥م.
 - اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي تلازم التراث والمعاصرة، محمد رضا مبارك، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد، ١٩٩٣.
 - المجمال في تاريخ الادب العربي وضعه لجنة الفتها وزارة المعارف من د.طه حسين، احمد الاسكندري، احمد امين، علي الجارم، عبد العزيز البشري، احمد ضيف، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.
 - المجموع او الحكمة العرضية في كتاب معاني الشعر، ابن سينا، تحقيق وشرح محمد سليم، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث ونشره، ١٩٦٩.
 - معارك طه حسين الادبية والفكرية، سامح كريم، دار القلم، بيروت، ط٢، ١٩٧٧.
 - من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف، بمر، ط١، ١٩٥١.
 - الموجز في الادب العربي وتاريخه، حنا الفاخوري، ج١، الادب العربي القديم، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٥.
 - النثر الفني في القرن الرابع، د.زكي مبارك، ج١-٢، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، د.ت.
 - النثر في العصر الجاهلي، الدكتور هاشم صالح متاع، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
 - نثر النظم وحل العقد، عبد الملك بن محمد الثعالبي، دار الرائد العربي، بيروت، د.ط، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
 - نظرية الانواع الادبية، ك.فنست، ترجمة عبد الرزاق الاصفر، وزارة الثقافة، دمشق، د.ط، ٢٠٠٩.
 - نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، (من الكندي الى ابن رشد)، الفت كمال الروبي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
 - النقد الادبي الحديث في العراق، د.احمد مطلوب، بغداد، د.م، د.ط، ١٩٦٨.
 - نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٣.
- الرسائل والاطاريج الجامعية:
- النثر الفني لدى عماد الدين الاصفهاني الكاتب ت ٥٦٧هـ دراسة موضوعية فنية، رسالة تقدم بها عبد الرحمن عمر حسين، رسالة ماجستير، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.